الفصل الأول

من خطبه المختارة

١ ـ من خطبة له
يذكر فيها ابتداءَ خلق السماء والأرض، وخلق آدم، وفيها ذكر الحج

الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يُحصي نعماءه العادّون، ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بُعد الهمم، ولا يناله غوص الفِطَن: الذي ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود. فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتّد بالصخور ميدان أرضه.

أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة: فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال «فيمَ؟» فقد ضمّنه، ومن قال «علامَ؟» فقد أخلى منه. كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم. مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة[1]، فاعل لا

---

(١) أي المفارقة والبانة.

بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحّد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده.

خلق العالم

أنشأ الخلق إنشاء، وابتدأه ابتداء، بلا روية أجالها، ولا تجربة استفادها، ولا حركة أحدثها، ولا همامة[1] نفس اضطرب فيها. أحال الأشياء لأوقاتها، ولأمّ بين مختلفاتها، وغرّز غرائزها، وألزمها أشباحها، عالما بها قبل ابتدائها، محيطا بحدودها وانتهائها، عارفا بقرائنها وأحنائها[2]. ثم أنشأ - سبحانه - فتق الأجواء، وشق الأرجاء، وسكائك[3] الهواء، فأجرى فيها ماء متلاطما تياره، متراكما زخّاره[4]. حمله على متن الريح العاصفة، والزعزع[5] القاصفة، فأمرها بردة، وسلّطها على شدة وقرنها إلى حدة. الهواء من تحتها فتيق، والماء من فوقها دفيق. ثم أنشأ سبحانه ريحا اعتقم مهبها[6]، وأدام مربها[7]، وأعصف مجراها، وأبعد منشاها، فأمرها بتصفيق[8] الماء الزخار، وإثارة موج البحار، فمخضته[9] مخض السقاء، وعصفت به عصفها بالفضاء، ترد أوله إلى آخره، وساجيه[10] إلى مائره[11]، حتى عب عبابه، ورمى

(١) هَمَامة النفس أي اهتمامها بالأمر وقصدها إليها.

(٢) جمع حنو وهو الجانب.

(٣) جمع سكاكة - الهواء الملائ في عنان السماء.

(٤) شديد الامتداد والارتفاع.

(٥) الريح التي تزعزع كل ثابت.

(٦) أي المفترق.

(٧) اعتقم مهبها أي جعل هبوبها عقيما لا تلقح سحابا ولا شجرا.

(٨) أي الملازمة.

(٩) تحريك وتقليب.

(١٠) أي حركته بشدة.

(١١) الساجي هو الساكن.

بالزبد ركامه[1]، فرفعه في هواء منفتق، وجو منفهق[2]، فسوى منه سبع سموات، جعل سفلاهن موجا مكفوفا، وعلياهن سقفا محفوظا، وسمكا مرفوعا، بغير عمد يدعمها، ولا دسار[3] ينظمها. ثم زينها بزينة الكواكب، وضياء الثواقب[4]، وأجرى فيها سراجا مستطيرا، وقمرا منيرا: في فلك دائر، وسقف سائر، ورقيم[5] مائر.

خلق الملائكة

ثم فتق ما بين السموات العلا، فملأهن أطوارا من ملائكته، منهم سجود لا يركعون، وركوع لاينتصبون، وصافون لا يتزايلون[6]، ومسبحون لا يسأمون، لا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، ولا غفلة النسيان. ومنهم أمناء على وحيه، وألسنة إلى رسله، ومختلفون بقضائه وأمره، ومنهم الحفظة لعباده، والسدنة لأبواب جنانه. ومنهم الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم. ناكسة دونه أبصارهم، متلفعون تحته بأجنحتهم، مضروبة بينهم وبين من دونهم حجب العزة، وأستار القدرة. لا يتوهمون ربهم بالتصوير، ولا يجرون عليه صفات المصنوعين، ولا يحدونه بالأماكن، ولا يشيرون إليه بالنظائر.

---

(١) المائر هو الذي يذهب ويجيء.

(٢) الراكم: ما تراكم بعضه على بعض.

(٣) منفهق: مفتوح واسع.

(٤) الدسار واحدها الدسر وهو المسمار.

(٥) الثواقب: المنيرة المشرقة.

(٦) رقيم: اسم من أسماء الفلك لكونه مرقوما بالكواكب.

(٧) لا يتزايلون: لا يتفارقون.

صفة خلق آدم عليه السلام

ثم جمع سبحانه من حزن[1] الأرض وسهلها، وعذبها وسبخها، تربه سنها بالماء حتى خلصت، ولاطها[2] بالبلة[3] حتى لزبت[4]، فجبل منها صورة ذات أحناء ووصول، وأعضاء وفصول: أجمدها حتى استمسكت، وأصلدها حتى صلصلت، لوقت معدود، وأمد معلوم؛ ثم نفخ فيها من روحه فمثلت إنسانا ذا أذهان يجيلها، وفكر يتصرف بها، وجوارح يختدمها[5]، وأدوات يقلبها، ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل، والأذواق والمشام، والألوان والأجناس، معجونا بطينة الألوان المختلفة، والأشباه المؤتلفة، والأضداد المتعادية، والأخلاط المتباينة من الحر والبرد، والبلة والجمود، واستأدى[6] الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم، وعهد وصيته إليهم، في الإذعان بالسجود له، والخنوع لتكرمته، فقال سبحانه: «اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس» اعترته الحمية، وغلبت عليه الشقوة، وتعزز بخلقة النار، واستوهن خلق الصلصال، فأعطاه الله النظرة استحقاقا للسخطة، واستتماما للبلية، وإنجازا للعدة: فقال: «إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم». ثم أسكن سبحانه آدم دارا أرغد فيها عيشه، وآمن فيها محلته، وحذره إبليس وعداوته، فاغتره عدوه نفاسة عليه بدار المقام، ومرافقة الأبرار، فباع اليقين بشكه، والعزيمة بوهنه، واستبدل بالجذل وجلا، وبالاغترار ندما. ثم بسط الله

---

(١) حزن الأرض: وعرها.

(٢) خلطها وعجنها.

(٣) من البلل.

(٤) التصق وثبت.

(٥) يجعلها في خدمة مآربها.

(٦) طالب بأدائها.

سبحانه له في توبته، ولقّاه كلمة رحمته، ووعده المردّ إلى جنته، وأهبطه إلى دار البلية، وتناسل الذرية.

اختيار الأنبياء

واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، لما بدّل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقه، واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم[1] الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، وواتر[2] إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم آيات المقدرة: من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم، وآجال تفنيهم، وأوصاب[3] تهرمهم، وأحداث تتابع عليهم؛ ولم يُخلِ الله سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل، أو حجة لازمة، أو محجة[4] قائمة: رسل لاتُقصِّر بهم قلة عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم: من سابق سمي له من بعده، أو غابر عرّفه من قبله، على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء، وخلفت الأبناء.

مبعث النبي

إلى أن بعث الله سبحانه محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لإنجاز عدته، وإتمام نبوته، مأخوذاً على النبيين ميثاقه، مشهورة سماته، كريماً ميلاده. وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة، وأهواء متشرة،

(١) صرفتهم عن قصدهم.
(٢) أرسلهم وبعث كل نبي نترة.
(٣) متاعب.
(٤) الطريق الواضحة.

وطرائق متشتتة، بين مشبِّه لله بخلقه، أو ملحد في اسمه، أو مشير إلى غيره، فهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة. ثم اختار سبحانه لمحمد ﷺ لقاءه، ورضي له ما عنده، وأكرمه عن دار الدنيا، ورغب به عن مقام البلوى، فقبضه إليه كريما صلى الله عليه وآله، وخلّف فيكم ما خلّفت الأنبياء في أممها، إذ لم يتركوهم هملا، بغير طريق واضح، ولا عَلَم قائم.

القرآن والأحكام الشرعية

كتاب ربكم فيكم: مبينا حلاله وحرامه، وفرائضه وفضائله، وناسخه ومنسوخه، ورخصه وعزائمه، وخاصه وعامه، وعبره وأمثاله، ومرسله ومحدوده، ومحكمه ومتشابهه، مفسرا مجمله، ومبينا غوامضه، بين مأخوذ ميثاق علمه، وموسع على العباد في جهله، وبين مثبت في الكتاب فرضه، ومعلوم في السنة نسخه، وواجب في السنة أخذه، ومرخص في الكتاب تركه، وبين واجب بوقته، وزائل في مستقبله. ومباين بين محارمه، من كبير أوعد عليه نيرانه، أو صغير أرصد له غفرانه، وبين مقبول في أدناه، موسع في أقصاه.

ومنها في ذكر الحج

وفرض عليكم حج بيته الحرام، الذي جعله قبلة للأنام، ذُونَه ورود الأنعام، ويألهون[1] إليه ولوه الحمام، وجعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته، وإذعانهم لعزته، واختار من خلقه سُمّاعا أجابوا إليه دعوته، وصدّقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه، يحرزون الأرباح في متجر عبادته، ويتبادرون عنده موعد

(١) يلوذون به.

مغفرته، جعله سبحانه وتعالى للإسلام علما، وللعائذين حرما، فرض حقه، وأوجب حجه، وكتب عليكم وفادته، فقال سبحانه: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾.

٢. من خطبة له

يصف فيها زمانه بالجور، ويقسم الناس فيه خمسة أصناف، ثم يزهد في الدنيا

معنى جور الزمان

أيها الناس، إنا قد أصبحنا في دهر عنود[١]، وزمن كنود[٢]، يعد فيه المحسن مسيئا، ويزداد الظالم فيه عتوا، لا ننتفع بما علمنا، ولا نسأل عما جهلنا، ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا.

أصناف المسيئين

والناس على أربعة أصناف: منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه، وكلالة حده، ونضيض وفره، ومنهم المصلت لسيفه، والمعلن بشره، والمجلب بخيله ورجله، قد أشرط نفسه، وأوبق دينه لحطام ينتهزه، أو مقنب[٣] يقوده، أو منبر يفرعه[٤]. ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمنا، ومما لك عند الله عوضا! ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن[٥] من شخصه،

(١) جائر.

(٢) كفور.

(٣) مجموعة من الخيل بين الثلاثين والأربعين.

(٤) علاه.

(٥) خفض.

وقارب من خطوه، وشمّر من ثوبه، وزخرف من نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية. ومنهم من أبعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه، وانقطاع سببه، فقصرته الحال على حاله، فتحلى باسم القناعة، وتزين بلباس أهل الزهادة، وليس من ذلك في مراح ولا مغدى[1].

الراغبون في الله

وبقي رجال غض أبصارهم ذكر المرجع، وأراق دموعهم خوف المحشر، فهم بين شريد ناد[2]، وخائف مقموع[3]، وساكت مكعوم[4]، وداع مخلص، وثكلان[5] موجع، قد أخملتهم التقية، وشملتهم الذلة، فهم في بحر أجاج، أفواههم ضامزة[6]، وقلوبهم قرحة[7]، قد وعظوا حتى ملّوا، وقهروا حتى ذلوا، وقُتلوا حتى قلّوا.

٢ـ من خطبة له

يعظ فيها الناس ويهديهم من ضلالتهم

بنا اهتديتم في الظلماء، وتسنمتم ذروة العلياء، وبنا أفجرتم عن السرار[8]. وقُرِ سمع لم يفقه الواعية، وكيف يراعي النبأة[9] من أصمّته الصيحة؟ ربط جنان لم يفارقه الخفقان. مازلت أنتظر بكم عواقب

---

(١) الذهاب في الصباح.

(٢) منفرد هارب من الجماعة إلى الوحدة.

(٣) مقهور.

(٤) من «كعم البعير» أي سد فاه لئلا يأكل أو يعض.

(٥) حزين.

(٦) ساكتة.

(٧) مجروحة.

(٨) كناية عن الظلام، لأنه آخر ليلة في الشهر يختفي فيها القمر.

(٩) الصوت الخفي.

الغدر. وأتوسمكم بحلية المغترين، حتى سترني عنكم جلباب الدين، وبصرنيكم صدق النية. أقمت لكم على سنن الحق في جواد المضلة، حيث تلتقون ولا دليل، وتختفرون ولا تميهون.

اليوم أُطلق لكم العجماء ذات البيان! عزب[1] رأي امرئ تخلف عني! ما شككت في الحق مذ أريته! لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه، بل أشفق من غلبة الجهال ودول الضلال! اليوم تواقفنا على سبيل الحق والباطل. من وثق بماء لم يظمأ! أيها الناس، إن الوفاء توأم الصدق، ولا أعلم جُنّة أوقى منه، وما يغدر من علم كيف المرجع. ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيسا[2]، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة. ما لهم! قاتلهم الله! قد يرى الحُوَّل القُلَّب وجه الحيلة ودونها مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين.

الحمد لله غير مقنوط من رحمته، ولا مخلو من نعمته، ولا مبأوس من مغفرته، ولا مستنكف عن عبادته، الذي لا تبرح منه رحمة، ولا تفقد له نعمة.

ذم الدنيا

والدنيا دار مني لها الفناء، ولأهلها منها الجلاء، وهي حلوة خضراء، وقد عجلت للطالب، والتبست[3] بقلب الناظر؛ فارتحلوا منها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد، ولا تسألوا فيها فوق الكفاف، ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ.

---

(١) عاب.

(٢) فطنة وذكاء.

(٣) اختلطت.

ألا إن الدنيا دار لا يُسلم منها إلا فيها، ولا يُنجى بشيء كان لها: ابتُلي الناس بها فتنة، فما أخذوه منها لها أُخرجوا منه وحوسبوا عليه، وما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه وأقاموا فيه؛ فإنها عند ذوي العقول كفيء الظل، بينا تراه سابغا حتى قلص، وزائدا حتى نقص.

في الحث على العمل الصالح

رحم الله امرأ سمع حكما فرعى ودعي إلى رشاد فدنا، وأخذ بحجزة[1] هاد فنجا. راقب ربه، وخاف ذنبه، قدم خالصا، وعمل صالحا. اكتسب مذخورا[2]، واجتنب محذورا، ورمى غرضا، وأحرز عوضا. كابر هواه، وكذب مناه. جعل الصبر مطية نجاته، والتقوى عُدة وفاته. ركب الطريقة الغراء، ولزم المحجة البيضاء، اغتنم المهل[3]، وبادر الأجل، وتزود من العمل.

٤- من خطبة له

وهي في التزهيد في الدنيا، وثواب الله للزاهد، ونعم الله على الخالق

التزهيد في الدنيا

ألا وإن الدنيا قد تصرمت، وآذنت بانقضاء، وتنكر معروفها وأدبرت حذاء، فهي تحفز بالفناء سكانها، وتحدو بالموت جيرانها، وقد أمرّ فيها ما كان حلوا، وكدر منها ما كان صفوا، فلم يبق منها إلا سملة كسملة

---

(١) معقد الإزار والمراد هنا الاقتداء والتمسك.

(٢) اكتسب ثوابا يدخره لوقت الحاجة.

(٣) مدة الحياة مع العافية.

الإداوة[1] أو جرعة كجرعة المقلة[2]، لو تمزّزها الصديان[3] لم ينفع. فأزمعوا عباد الله الرحيل عن هذه الدار المقدور على أهلها الزوال؛ ولا يغلبنكم فيها الأمل، ولا يطولن عليكم فيها الأمد.

ثواب الزهاد

فو الله لو حننتم حنين الوُلّه العجال، ودعوتم بهديل الحمام، وجأرتم جؤار متبتّلي الرهبان، وخرجتم إلى الله من الأموال والأولاد، التماس القربة إليه في ارتفاع درجة عنده، أو غفران سيئة أحصتها كتبه، وحفظتها رسله، لكان قليلا فيما أرجو لكم من ثوابه، وأخاف عليكم من عقابه.

نعم الله

وتالله لو انماثت قلوبكم انمياثا[4]، وسالت عيونكم من رغبة إليه أو رهبة منه دما، ثم عُمّرتم في الدنيا، ما الدنيا باقية، ما جزت أعمالكم عنكم - ولو لم تُبقوا شيئا من جهدكم - أنعمه عليكم العظام، وهداه إياكم للإيمان.

٥ـ ومن خطبة له
في المبادرة إلى صالح الأعمال

فاتقوا الله عباد الله، وبادروا آجالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى

---

(١) سملة - محركة - بقية الماء في المحوض. والإداوة: المطهرة، وهي إناء الماء الذي يتطهر به.

(٢) حصاة يضعها المسافرون في إناء الماء، فيتناول كل منهم مقدار ما عمره. وهم يفعلون ذلك إذا ما قل الماء.

(٣) العطشان.

(٤) ذابت ذوبان.

لكم بما يزول عنكم، وترحّلوا فقد جُدّ بكم، واستعدوا للموت فقد أظلكم، وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا؛ فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثا، ولم يتركّكم سدى، وما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به. وإن غاية تنقصها اللحظة، وتهدمها الساعة، لجديرة بقصر المدة. وإن غائبا يحدوه الجديدان: الليل والنهار، لحرى[1] بسرعة الأوبة. وإن قادما يقدم بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العُدة. فتزودوا في الدنيا، من الدنيا، ما تحرزون به أنفسكم غدا. فاتقى عبد ربه، نصح نفسه، وقدم توبته، وغلب شهوته، فإن أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكّل به، يزين له المعصية ليركبها، ويمنّيه التوبة ليسوّفها، إذا هجمت منيته عليه أغفل ما يكون عنها. فيالها حسرة على كل ذي غفلة أن يكون عمره عليه حُجة، وأن تؤديه أيامه إلى الشقوة! نسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة، ولا تقصر به عن طاعة ربه غاية، ولا تحل به بعد الموت ندامة ولا كآبة.

٦- ومن خطبة له

وفيها مباحث لطيفة من العلم الإلهي

الحمد لله الذي لم تسبق له حال حالا، فيكون أولا قبل أن يكون آخرا، ويكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا؛ كل مسمى بالوحدة غيره قليل، وكل عزيز غيره ذليل، وكل قوى غيره ضعيف، وكل مالك غيره مملوك، وكل عالم غيره متعلم، وكل قادر غيره يقدر ويعجز، وكل سميع غيره يصم[2] عن لطيف الأصوات، ويصمه كبيرها، ويذهب عنه

(١) جدير.

(٢) يصاب بالصمم.

ما بعُد منها، وكل بصير غيره يعمى عن خفي الألوان ولطيف الأجسام، وكل ظاهر غيره باطن، وكل باطن غيره غير ظاهر. لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان، ولا تخوف من عواقب زمان، ولا استعانة على ند مثاور[1]، ولا شريك مكاثر[2]، ولا ضد منافر[3]؛ ولكن خلائق مربوبون[4]، وعبيد داخرون[5]، لم يحلل في الأشياء فيقال: هو كائن، ولم ينأ عنها فيقال: هو منها بائن. لم يؤده خلق ما ابتدأ، ولا تدبير ما ذرأ[6]، ولا وقف به عجز عما خلق، ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدّر، بل قضاء متقن، وعلم محكم، وأمر مبرم، المأمول مع النقم، المرهوب مع النعم!

٧ـ ومن خطبة له

علم فيها الناس الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وفيها بيان صفات الله سبحانه وصفة النبي والدعاء له

صفات الله

اللهم داحي المدحوّات[7]، وداعم المسموكات[8]، وجابل القلوب على فطرتها: شقيّها وسعيدها.

---

(١) الواثب والمحارب.

(٢) المفاخر بالكثرة أو بالكبر والعظمة.

(٣) الذي يحاكي ضده في الرفعة والنسب فيغلبه.

(٤) أي مملوكون.

(٥) أذلاء.

(٦) خلق.

(٧) باسط الميسوطات وهي الأرضين.

(٨) السماوات.

اجعل شرائف صلواتك[1]، ونوامي[2] بركاتك، على محمد عبدك ورسولك الخاتم لما سبق، والفاتح لما انغلق، والمعلن الحق بالحق، والدافع جيشات الأباطيل، والدامغ صولات الأضاليل، كما حُمِّل فاضطلع قائما بأمرك، مستوفزا في مرضاتك، غير ناكل عن قُدُم، ولا واه في عزم، واعيا لوحيك، حافظا لعهدك، ماضيا على نفاذ أمرك؛ حتى أورى قبس القابس، وأضاء الطريق للخابط، وهُديت به القلوب بعد خوضات[3] الفتن والآثام، وأقام بموضحات الأعلام، ونيرات الأحكام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك بالحق، ورسولك إلى الخلق.

الدعاء للنبي

اللهم أفسح له مفسحا في ظلك، واجزه مضاعفات الخير من فضلك. اللهم وأعل على بناء البانين بناءه، وأكرم لديك منزلته، وأتمم له نوره، واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة، مرضيّ المقالة، ذا منطق عدل، وخطبة فصل. اللهم أجمع بيننا وبينه في برد العيش وقرار النعمة، ومنى الشهوات، وأهواء اللذات، ورخاء الدعة، ومنتهى الطمأنينة، وتحف الكرامة.

---

(١) جمع شريفة.

(٢) زوائد.

(٣) جمع خوضة وهي المرة من الخوض.

٨ـ ومن خطبة له

وهى الخطبة العجيبة وتسمى «الغراء»

وفيها نعوت الله جل شأنه، ثم الوصية بتقواه ثم التنفير من الدنيا، ثم ما يلحق من دخول القيامة، ثم تنبيه الخلق إلى ما هم فيه من الأعراض، ثم فضله عليه السلام فى التذكير

صفته جل شأنه

الحمد لله الذى علا بحوله، ودنا بطوله، مانح كل غنيمة وفضل، وكاشف كل عظيمة وأزل[١]. أحمده على عوارف كرمه، وسوابغ نعمه، وأومن به أولا باديا، وأستهديه قريبا هاديا، وأستعينه قاهرا قادرا، وأتوكل عليه كافيا ناصرا، وأشهد أن محمدا ـ صلى الله عليه وآله ـ عبده ورسوله، أرسله لإنفاذ أمره، وإنهاء عذره[٢] وتقديم نذره[٣].

الوصية بالتقوى

أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذى ضرب الأمثال، ووقّت لكم الآجال، وألبسكم الرياش، وأرفغ لكم المعاش، وأحاط بكم الإحصاء، وأرصد لكم الجزاء، وآثركم بالنعم السوابغ، والرفد[٤] الروافغ[٥]، وأنذركم بالحجج البوالغ، فأحصاكم عددا ووظف لكم مُددا، فى قرار خبرة[٦]، ودار عبرة، أنتم مختبرون فيها، ومحاسبون عليها.

---

(١) ضيق وشدة.

(٢) إنهاء عذره أى إبلاغه، والعذر هنا كناية عن الحجج العقلية والنقلية التى أقيمت ببعثة النبى ﷺ.

(٣) جمع نذير، وهى الأخبار المنذرة بالعقاب من سوء الأعمال.

(٤) جمع رفدة، وهى العطية.

(٥) الواسعة.

(٦) أى فى دار ابتلاء واختبار وهى الدنيا.

التنفير من الدنيا

فإن الدنيا رنق[1] مشربها، ردغ[2] مشرعها، يونق[3] منظرها، ويوبق[4] مخبرها. غرور حائل، وضوء آفل، وظل زائل، وسناد مائل، حتى إذا أنس نفرها، واطمأن نكرها، قمصت بأرجلها، وقنصت بأحبلها، وأقصدت[5] بأسهمها، وأعلقت[6] المرء أوهاق المنية[7] قائدة له إلى ضنك المضجع، ووحشة المرجع، ومعاينة المحل وثواب العمل، وكذلك الخلف بعقب السلف، لا تُقلع المنية اختراما[8]، ولا يرعوى الباقون اجتراما[9]، يحتذون مثالا، ويمضون أرسالا، إلى غاية الانتهاء، وصيّور الفناء.

بعد الموت البعث

حتى إذا تصرّمت الأمور، وتقضت الدهور، وأزف النشور، أخرجهم من ضرائح القبور، وأوكار الطيور، وأوجرة[10] السباع، ومطارح المهالك، سراعا إلى أمره، مهطعين إلى معاده، رعيلا صموتا، قياما صفوفا، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي. عليهم لبوس الاستكانة،

---

(١) كدر.

(٢) كثير الطين والوحل.

(٣) يُعجب.

(٤) يُهلك.

(٥) قتلت مكانها من غير تأخير.

(٦) ربطت بعنقه.

(٧) حبال الموت.

(٨) أي استئصال الأحياء.

(٩) اقتراف السيئات.

(١٠) الجُحْر.

وضرع الاستسلام والذلة. قد ضلت الحيل، وانقطع الأمل، وهوت الأفئدة كاظمة، وخشعت الأصوات مهيمنة، وألجم العرق، وعظم الشفق، وأُرعدت الأسماع لزبرة الداعي[1] إلى فصل الخطاب، ومقايضة الجزاء، ونكال العقاب، ونوال الثواب.

تشبيه الخلق

عباد مخلوقون اقتدارا، ومربوبون اقتسارا[2]، ومقبوضون احتضارا، ومضمّنون أجداثا، وكائنون رفاتا، ومبعوثون أفرادا، ومدينون جزاء، وميزون حسابا. قد أُمهلوا في طلب المخرج، وهدوا سبيل المنهج؛ وعُمّروا مَهَل المستعتب[3]، وكشف عنهم سُدَف الريب[4]، وخُلّوا لمضمار الجياد، وروية الارتياد، وأناة المُقتَبِس المُرتاد، في مدة الأجل، ومضطرب المهل.

فضل التذكير

فيالها أمثالا صائبة، ومواعظ شافية، لو صادفت قلوبا زاكية، وأسماعا واعية، وآراء عازمة، وألبابا حازمة! فاتقوا الله تقية من سمع فخشع، واقترف فاعترف، ووجل فعمل، وحاذر فبادر، وأيقن فأحسن، وعُبِّر فاعتبر، وحُذِّر فحذر، وزُجِر فازدجر، وأجاب فأناب، وراجع فتاب، واقتدى فاحتذى، وأُرِى فرأى، فأسرع طالبا، ونجا هاربا، فأفاد ذخيرة، وأطاب سريرة، وعمّر معادا، واستظهر زادا، ليوم رحيله ووجه سبيله، وحال حاجته، وموطن فاقته، وقدّم أمامه لدار مُقامه. فاتقوا

---

(١) صوته وصيحته. واحدة الزبر أي الكلام الشديد.

(٢) الغلبة والقهر.

(٣) المسترضى.

(٤) سُدف الريب: السدف جمع سدفة أي الظلمة والريب جمع ريبة وهي الشبهة والشك.

الله عباد الله جهة ما خلقكم له، واحذروا منه كُنه ما حذركم من نفسه، واستحقوا منها ما أعد لكم بالتنجز لصدق[1] ميعاده، والحذر من هول معاده.

التذكير بضروب النعم

ومنها: جعل لكم أسماعاً لتعي ما عناها، وأبصاراً لتجلو عن عشاها، وأشلاء جامعة لأعضائها، ملائمة لاحنائها، في تركيب صورها، ومُدد عمرها، بأبدان قائمة بأرفاقها[2]، وقلوب رائدة لأرزاقها، في مجللات نعمه، وموجبات مننه، وحواجز عافيته. وقدّر لكم أعمارا ستراها عنكم، وخلّف لكم عبرا من آثار الماضين قبلكم، من مستمتع خلاقهم، ومستفسح خناقهم[3]. أرهقتهم المنايا دون الآمال، وشذ بهم عنها تخرّم الآجال. لم يمهدوا في سلامة الأبدان، ولم يعتبروا في أُنُف[4] الأوان. فهل ينتظر أهل بضاضة[5] الشباب إلا حوانئ الهرم؟ وأهل غضارة الصحة إلا نوازل السقم؟ وأهل مدة البقاء إلا آونة الفناء؟ مع قرب الزيال[6]، وأُزوف الانتقال، وعَلَز[7] القلق، وألم المضض، وغُصص الجَرض[8]، وتلفّت الاستغاثة بنصرة الحفدة والأقرباء، والأعزة والقرناء! فهل دفعت الأقارب، أو نفعت النواحب، وقد غودر في محلة الأموات

(١) طلب وفاء الوعد على عجل.

(٢) جمع رفق أي المنفعة.

(٣) حبل يخنق به.

(٤) مستأنف لم يسبق به قدر.

(٥) رخص الجلد ورقته.

(٦) المفارقة.

(٧) القلق والهلع الذي يصيب المريض والمحتضر.

(٨) الريق.

رهينا، وفي ضيق المضجع وحيدا، قد هتكت الهوام جلدته، وأبلت النواهك جدته، وعفت العواصف آثاره، ومحا الحدثان معالمه، وصارت الأجساد شحبة بعد بضتها، والعظام نخرة بعد قوتها، والأرواح مرتهنة بثقل أعبائها، موقنة بغيب أنبائها، لا تُستزاد من صالح عملها، ولا تُستعتب من سيء زللها! أوَ لستم أبناء القوم والآباء، وإخوانهم والأقرباء؟ تحتذون أمثلتهم، وتركبون قدتهم[1]، وتطؤون جادتهم؟! فالقلوب قاسية عن حظها، لاهية عن رشدها، سالكة في غير مضمارها! كأن المعنى سواها، وكأن الرشد في إحراز دنياها.

التحذير من هول الصراط

واعلموا أن مجازكم على الصراط ومزالق دحضه[2]، وأهاويل زلله، وتارات أهواله؛ فاتقوا الله عباد الله تقية ذي لُب شغل التفكير قلبه، وأنصب الخوف بدنه، وأسهر التهجد غرار[3] نومه، وأظمأ الرجاء هواجر[4] يومه، وظلف[5] الزهد شهواته، وأوجف الذكر بلسانه، وقدم الخوف لأمانه، وتنكب المخالج عن وضح السبيل، وسلك أقصد المسالك إلى النهج المطلوب؛ ولم تفتله[6] فاتلات الغرور، ولم تعم عليه مشتبهات الأمور، ظافرا بفرحة البشرى، وراحة النعمى، في أنعم نومه، وآمن يومه. وقد عبر معبر العاجلة حميدا، وقدم زاد الآجلة سعيدا،

---

(١) الطريقة.

(٢) انقلاب الرجل بغتة فيسقط.

(٣) القليل من النوم.

(٤) نصف النهار عند اشتداد الحر.

(٥) منعها.

(٦) لم ترده ولم تصرفه.

وبادر من وجل، وأكمش[1] في مهل، ورغب في طلب، وذهب عن هرب، وراقب في يومه غده، ونظر قُدما أمامه. فكفى بالجنة ثوابا ونوالا، وكفى بالنار عقابا ووبالا! وكفى بالله منتقما ونصيرا! وكفى بالكتاب حجيجا وخصيما!

الوصية بالتقوى

أوصيكم بتقوى الله الذي أعذر بما أنذر، واحتج بما نهج وحذركم عدوا نفذ في الصدور خفيا، ونفث في الآذان نجيا[2]، فأضل وأردى، ووعد فمنّى، وزيّن سيئات الجرائم، وهوّن موبقات العظائم، حتى إذا استدرج قرينته، واستغلق رهينته، أنكر ما زيّن، واستعظم ما هوّن، وحذّر ما أمّن.

ومنها في صفة خلق الإنسان

ثم هذا أنشأه في ظلمات الأرحام، وشُغف الأستار، نُطفة دهاقا[3]، وعلقة محاقا[4]، وجنينا وراضعا، ووليدا ويافعا، ثم منحه قلبا حافظا، ولسانا لافظا، وبصرا لاحظا، ليفهم معتبرا، ويقصّر مزدجرا؛ حتى إذا قام اعتداله، واستوى مثاله، نفر مستكبرا، وخبط سادرا، ماتحا في غرب هواه، كادحا سعيا لدنياه، في لذات طربه، وبدوات[5] أربه؛ ثم لا يحتسب رزية، ولا يخشع تقية؛ فمات في فتنته غريرا، وعاش في هفوته يسيرا، لم يُفد عوضا، ولم يقض مفترضا. دهمته فجعات المنية

---

(١) أسرع.

(٢) التحادث سرا.

(٣) متتابعا.

(٤) خفي فيها كل شكل وصورة.

(٥) جمع بداة وهي ما بدا من الرأي، أي ذاهبا فيما يبدو له من رغائب.

في غُبّر جماحه، وسنن مراحه، فظل سادرا، وبات ساهرا، في غمرات الآلام، وطوارق الأوجاع والأسقام، بين أخ شقيق، ووالد شفيق، وداعية بالويل جزعا، ولادمة[1] للصدر قلقا؛ والمرء في سكرة مُلهثة، وغمرة كارثة، وأنة موجعة، وجذبة مُكربة، وسوقة متعبة. ثم أُدرج في أكفانه مبلسا، وجُذب منقادا سلسا، ثم أُلقي على الأعواد رجيع وصب، ونضْوَ سقم، تحمله حفدة الولدان، وحشدة الإخوان، إلى دار غُربته، ومنقطع زورته[2]، ومفرد وحشته؛ حتى إذا انصرف المشيع، ورجع المتفجع، أُقعد في حفرته نجيا لبهتة السؤال، وعثرة الامتحان. وأعظم ما هنالك بلية نزول الحميم، وتصلية الجحيم، وفورات السعير، وسورات الزفير، لا فترة مريحة، ولا دعة مزبحة، ولا قوة حاجزة، ولا موتة ناجزة، ولا سنة مسلية، بين أطوار الموتات، وعذاب الساعات! إنا بالله عائذون!

عباد الله، أين الذين عُمّروا فنعموا، وعُلّموا ففهموا، وأُنظروا فلهوا، وسُلّموا فنسوا! أُمهلوا طويلا، ومُنحوا جميلا، وحُذروا أليما، ورُعدوا جسيما! احذروا الذنوب الموبّقة، والعيوب المسخطة.

أولى الأبصار والأسماع، والعافية والمتاع، هل من مناص أو خلاص، أو معاذ أو ملاذ، أو فرار أو محار[3]! أم لا؟ «فأنى تؤفكون!» أم أين تصرفون! أم بماذا تغترّون! وإنما حظ أحدكم من الأرض، ذات الطول والعرض، قيد قدّه[4]، متعفرا على خده! الآن عباد الله والخناق

---

(١) الضاربة.

(٢) حيث لا يُزار.

(٣) مرجع إلى الدنيا بعد فراقها.

(٤) المراد هنا: مضجعه من القبر لأنه بمقدار قامة الإنسان.

مُهمل، والروح مُرسل، في فينة الإرشاد، وراحة الأجساد، وباحة الاحتشاد، ومهل البقية وأُنُف المشية[1]، وإنظار التوبة، وانفساح الحوبة[2]، قبل الضنك والمضيق، والروع والزهوق[3]، وقبل قدوم الغائب المنتظر وإخذة العزيز المقتدر.

٩ـ ومن خطبة له

وتشتمل على قدم الخالق وعظم مخلوقاته، ويختمها بالوعظ

الحمد لله المعروف من غير رؤية، والخالق من غير روية، الذي لم يزل قائما دائما، إذ لا سماء ذات أبراج، ولا حُجب ذات إرتاج[4]، ولا ليل داج[5]، ولا بحر ساج[6]، ولا جبل ذو فجاج، ولا فج ذو اعوجاج، ولا أرض ذات مهاد، ولا خلق ذو اعتماد: ذلك مبتدع الخلق ووارثه، وإله الخلق ورازقه، والشمس والقمر دائبان في مرضاته: يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد.

قسم أرزاقهم، وأحصى آثارهم وأعمالهم، وعدد أنفسهم، وخائنة أعينهم، وما تُخفي صدورهم من الضمير، ومستقرهم ومستودعهم من الأرحام والظهور، إلى أن تتناهى بهم الغايات.

هو الذي اشتدت نقمته على أعدائه في سعة رحمته، واتسعت رحمته لأوليائه في شدة نقمته، قاهر من عازّه، ومدمر من شاقه، ومذل

---

(١) المشيئة والإرادة.

(٢) الحاجة والأرب.

(٣) الاضمحلال.

(٤) جمع رتج وهو الباب المغلق.

(٥) أي مظلم.

(٦) أي ساكن.

من ناواه، وغالب من عاداه، من توكل عليه كفاه، ومن سأله أعطاه، ومن أقرضه قضاه[1]، ومن شكره جزاه.

عباد الله، زنوا أنفسكم من قبل أن توزنوا، وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا، وتنفسوا قبل ضيق الخناق، وانقادوا قبل عنف السياق[2]، واعلموا أنه من لم يُعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر، لم يكن له من غيرها لا زاجر ولا واعظ.

١٠ ـ ومن خطبة له

تعرف بخطبة الأشباح[3]، وهي من جلائل خطبه عليه السلام

روى مسعدة بن صدقة عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام أنه قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام بهذه الخطبة على منبر الكوفة، وذلك أن رجلا أتاه فقال له: يا أمير المؤمنين صف لنا ربنا مثلما نراه عيانا لنزداد له حبا وبه معرفة، فغضب ونادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس حتى غص المسجد بأهله، فصعد المنبر وهو مغضب متغير اللون، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله، ثم قال:

وصف الله تعالى

الحمد لله الذي لا يفره المنع والجمود، ولا يكديه الإعطاء والجود؛ إذ كل معط منتقص سواه، وكل مانع مذموم ما خلاه؛ وهو المنّان بفوائد النعم، وعوائد المزيد والقسم؛ عياله الخلائق، ضمن أرزاقهم، وقدّر

---

(١) أي جعل تقديم العمل الصالح بمنزلة القرض والثواب عليه بمنزلة قضاء الدين.

(٢) من ساق يسوق.

(٣) الأشخاص: والمراد بهم هنا الملائكة.

أقواتهم، ونهج سبيل الراغبين إليه، الطالبين ما لديه، وليس بما سئل بأجود منه بما لم يُسأل. الأول الذى لم يكن له قبل فيكون شيء قبله، والآخر الذى ليس له بعد فيكون شيء بعده، والرادع أناسي الأبصار عن أن تناله أو تدركه، ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال، ولا كان فى مكان فيجوز عليه الانتقال. ولو وهب ما تنفست عنه معادن الجبال، وضحكت عنه أصداف البحار، من فلز اللجين والعقيان، ونثارة الدر وحصيد المرجان، ما أثر ذلك فى جوده، ولا أنفد سعة ما عنده، ولكان عنده من ذخائر الأنعام ما لا تنفده مطالب الأنام، لأنه الجواد الذى لا يغيضه[1] سؤال السائلين، ولا يُبخله[2] إلحاح الملحّين.

صفاته تعالى في القرآن

فانظر أيها السائل: فما ذلك القرآن عليه من صفته فائتم به[3] واستضئ بنور هدايته، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس فى الكتاب عليك فرضه، ولا فى سنة النبى صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى أثره، فكل علمه إلى الله سبحانه، فإن ذلك منتهى حق الله عليك. واعلم أن الراسخين فى العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله ـ تعالى ـ اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخا، فاقتصر على ذلك، ولا تقدّر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين. هو القادر الذى إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته،

(١) بمعنى انقصه وأذهب ما عنده.

(٢) أى وجده بخيلا.

(٣) أى اتبعه واقتدى به.

وحاول الفكر المبرّأ من خطرات الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، وتولّهت القلوب إليه، لتجرى في كيفية صفاته، وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته، ردعها وهي تجوب مهاوي سُدَف[1] الغيوب، متخلصة إليه ـ سبحانه ـ فرجعت إذ جُبهت[2] معترفة بأنه لا يُنال بجور الاعتساف كُنه معرفته، ولا تخطر ببال أولي الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته. الذي ابتدع الخلق على غير مثال امتثله، ولا مقدار احتذى عليه، من خالق معبود كان قبله، وأرانا من ملكوت قدرته، وعجائب ما نطقت به آثار حكمته، واعتراف الحاجة من الخلق إلى أن يقيمها بمسك[3] قوته، ما دلنا باضطرار قيام الحجة له على معرفته، فظهرت البدائع التي أحدثها آثار صنعته، وأعلام حكمته، فصار كل ما خلق حجة له ودليلا عليه؛ وإن كان خلقا صامتا، فحجته بالتدبير ناطقة، ودلالته على المبدع قائمة. فأشهد أن من شبّهك بتباين أعضاء خلقك، وتلاحم حقاق مفاصلهم المحتجبة لتدبير حكمتك، لم يعقد غيب ضميره على معرفتك، ولم يباشر قلبه اليقين بأنه لا ند لك، وكأنه لم يسمع تبرّؤ التابعين من المتبوعين إذ يقولون: «تالله إن كنا لفي ضلال مبين. إذ نسوّيكم برب العالمين»! كذب العادلون بك[4]، إذ شبهوك بأصنامهم، ونحلوك حلية المخلوقين بأوهامهم، وجزأوك تجزئة المجسمات بخواطرهم، وقدروك على الخلقة المختلفة القوى، بقرائح عقولهم. وأشهد أن من ساواك بشيء من خلقك فقد

---

(١) جمع سدفة وهي القطعة من الليل المظلم.

(٢) عادت خائبة.

(٣) ما يمسك الشيء.

(٤) أي سووه بك وشبهوك به.

عدل بك، والعادل بك كافر بما تنزلت به محكمات آياتك، ونطقت عنه شواهد حجج بيناتك، وإنك أنت الله الذي لم تتناه في العقول، فتكون في مهب فكرها مكيفا، ولا في رويات خواطرها فتكون محدودا مصرفا[1].

ومنها: قدّر ما خلق فأحكم تقديره، ودبّره فألطف تدبيره، ووجهه لوجهته فلم يتعد حدود منزلته، ولم يقصر دون الانتهاء إلى غايته، ولم يستصعب إذ أُمر بالمضي على إرادته، فكيف وإنما صدرت الأمور عن مشيته؟ المنشئ أصناف الأشياء بلا روية فكر آل إليها، ولا قريحة غريزة أضمر عليها، ولا تجربة أفادها من حوادث الدهور، ولا شريك أعانه على ابتداع عجائب الأمور، فتم خلقه بأمره، وأذعن لطاعته، وأجاب إلى دعوته، لم يعترض دونه ريث المبطئ، ولا أناة المتلكئ، فأقام من الأشياء أودها[2]، ونهج حدودها، ولاءم بقدرته بين متضادها، ووصل أسباب قرائنها[3]، وفرّقها أجناسا مختلفات في الحدود والأقدار، والغرائز والهيئات، بدايا[4] خلائق أحكم صنعها، وفطرها على ما أراد وابتدعها!

ومنها في صفة السماء

ونظم بلا تعليق رهوات فُرجها[5]، ولاحم صدوع انفراجها، ووشج بينها وبين أزواجها، وذلل للهابطين بأمره، والصاعدين بأعمال خلقه،

---

(١) أي تصرفك العقول بأفهامها في حدودك.

(٢) اعوجاجها.

(٣) جمع قرينة أي النفس

(٤) جمع بدئ أي مصنوع.

(٥) الرهوات جمع رهوة أي المكان المرتفع، الفرج جمع فرجة وهي المكان الخالي.

حُزونة[1] معراجها، وناداها بعد إذ هي دخان، فالتحمت عُرى أشراجها[2]، وفتق بعد الارتتاق صوامت[3] أبوابها، وأقام رصدا من الشهب الثواقب على نقابها، وأمسكها من أن تمور في خرق الهواء بأيده، وأمرها أن تقف مستسلمة لأمره، وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها، وقمرها آية ممحوة من ليلها، وأجراهما في مناقل[4] مجراهما، وقدّر سيرهما في مدارج درجهما، ليميز بين الليل والنهار بهما، وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما، ثم علق في جوها فلكها، وناط بها زينتها، من خفيات دواريها[5] ومصابيح كواكبها، ورمى مسترقي السمع بثواقب شهبها، وأجراها على أذلال تسخيرها من ثبات ثابتها، ومسير سائرها، وهبوطها وصعودها، ونحوسها وسعودها.

ومنها في صفة الملائكة

ثم خلق سبحانه لإسكان سمواته، وعمارة الصفيح[6] الأعلى من ملكوته، خلقا بديعا من ملائكته، وملأ بهم فروج فجاجها، وحشا بهم فتوق أجوائها، وبين فجوات تلك الفروج زجل المسبحين منهم في حظائر القدس، وسترات الحجب، وسرادقات المجد، ووراء ذلك الرجيج[7] الذي تستك منه الأسماع سبحات نور تردع الأبصار عن بلوغها، فتقف خاسئة على حدودها. وأنشأهم على صور مختلفات،

(١) الصعوبة.

(٢) جمع شرج وهي العروة.

(٣) أي لا مراغ فيها.

(٤) الأوضاع التي يتقلان فيها من مداريهما.

(٥) كواكبها وأقمارها.

(٦) السماء.

(٧) الزلزلة والاضطراب.

وأقدار متفاوتات، «أولي أجنحة» تسبح جلال عزته، لا يتحلون ما ظهر في الخلق من صنعه، ولا يدّعون أنهم يخلقون شيئا معه مما انفرد به، «بل عباد مكرمون. لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون» جعلهم الله فيما هنالك أهل الأمانة على وحيه، وحمّلهم إلى المرسلين ودائع أمره ونهيه، وعصمهم من ريب الشبهات، فما منهم زائغ عن سبيل مرضاته. وأمدهم بفوائد المعونة، وأشعر قلوبهم تواضع إخبات[1] السكينة، وفتح لهم أبوابا ذُللا[2] إلى تماجيده، ونصب لهم منارا واضحة على أعلام توحيده، لم تثقلهم موصرات الآثام، ولم ترتحلهم عقب الليالي والأيام، ولم ترم الشكوك بنوازعها[3] عزيمة إيمانهم، ولم تعترك الظنون على معاقد[4] يقينهم، ولا قدحت قادحة الإحن[5] فيما بينهم، ولا سليتهم الحيرة ما لاق من معرفته بضمائرهم، وما سكن من عظمته وهيبة جلالته في أثناء صدورهم، ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع برينها[6] على فكرهم. ومنهم من هو في خلق الغمام الدلّح[7]، وفي عظم الجبال الشمخ، وفي قترة[8] الظلام الأيهم[9]، ومنهم من قد خرقت أقدامهم تخوم الأرض السفلى، فهي كرايات بيض قد نفذت في مخارق الهواء، وتحتها ريح هفافة تحبسها على حيث انتهت من الحدود المتناهية، قد

(١) خلاف الصعبة.

(٢) جمع ذلول وهي النجم.

(٣) جمع معقد محل العقد بمعنى الاعتقاد.

(٤) جمع إضة وهي الحقد والضغينة.

(٥) لصق.

(٦) الدنس.

(٧) الثقيل بالماء من السحاب.

(٨) الخفاء وأخذه على قترة أي من حيث لا يدري.

(٩) الذي لا يهتدي فيه.

ستفرغتهم أشغال عبادته، ووصلت حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته، وقطعهم الإيقان به إلى الوله إليه، ولم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره. قد ذاقوا حلاوة معرفته، وشربوا بالكأس الروية من محبته، وتمكنت من سويداء قلوبهم وشيجة خيفته، فحنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم، ولم يُنفد طول الرغبة إليه مادة تضرّعهم، ولا أطلق عنهم عظيم الزلفة ربق[1] خشوعهم، ولم يتولهم الإعجاب فيستكثروا ما سلف منهم، ولا تركت لهم استكانة الإجلال نصيبا في تعظيم حسناتهم، ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤوبهم[2]، ولم تغض رغباتهم فيخالفوا عن رجاء ربهم، ولم تجف لطول المناجاة أسلات[3] ألسنتهم، ولا ملكتهم الأشغال فتنقطع بهمس الجؤار إليه أصواتهم، ولم تختلف في مقاوم الطاعة مناكبهم، ولم يثنوا إلى راحة التقصير في أمره رقابهم، ولا تعدو على عزيمة جدهم بلادة الغفلات، ولا تنتضل في هممهم خدائع الشهوات. قد اتخذوا ذا العرش ذخيرة ليوم فاقتهم، ويمموه عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم، لا يقطعون أمد غاية عبادته، ولا يرجع بهم الاستهتار بلزوم طاعته، إلا إلى مواد من قلوبهم غير منقطعة من رجائه ومخافته، لم تنقطع أسباب الشفقة منهم، فينوا[4] في جدهم، ولم تأسرهم الأطماع فيؤثروا وشيك السعي على اجتهادهم. لم يستعظموا ما مضى من أعمالهم، ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاء منهم شفقات وجلهم، ولم يختلفوا في ربهم باستحواذ الشيطان عليهم. ولم يفرقهم سوء التقاطع، ولا تولاهم غل التحاسد، ولا تشعبتهم مصارف

(١) حبل به عدة عُرى.

(٢) من داب في العمل حتى أجهده.

(٣) أسلة اللسان: طرفه.

(٤) من ونى ينى إذا تأنى.

الريب، ولا اقتسمتهم أخياف[1] الهمم، فهم أسراء إيمان لم يفكهم من ربقته زيغ ولا عدول ولا ونى ولا فتور، وليس في أطباق السماء موضع إهاب إلا وعليه ملك ساجد، أو ساع حافد[2]، يزدادون على طول الطاعة بربهم علما، وتزداد عزة ربهم في قلوبهم عظما.

ومنها في صفة الأرض ودحوها على الماء

كبس الأرض على مور[3] أمواج مستفحلة[4]، ولجج بحار زاخرة، تلتطم أواذي[5] أمواجها، وتصطفق متقاذفات أثباجها[6]، وترغو زبدا كالفحول عند هياجها، فخضع جماح الماء المتلاطم لثقل حملها، وسكن هيج ارتمائه إذ وطئته بكلكلها، وذل مستخذيا، إذ تمعكت[7] عليه بكواهلها، فأصبح بعد اصطخاب أمواجه، ساجيا مقهورا، وفي حكمه الذل منقادا أسيرا، وسكنت الأرض مدحوة[8] في لجة تياره، وردت من نخوة بأوه[9] واعتلائه، وشموخ أنفه وسمو غلوائه، وكعمته[10] على كظة[11] جريته، فهمد بعد نزقاته[12]، ولبد[13] بعد زيفان[14] وثباته.

(١) سواقط الهمم.
(٢) خفيف وسريع.
(٣) التحرك الشديد.
(٤) هائجة.
(٥) جمع أذى وهو أعلى الموج.
(٦) جمع ثبج استعارة لأعالى الموج.
(٧) أى تمرغت في التراب.
(٨) مبسوطة.
(٩) الكبر والزهو.
(١٠) من كمع أى شد فاه لئلا يعض أو يأكل.
(١١) امتلاء البطن بالطعام ويراد بها هنا جرى الماء من ثقل الاندفاع.
(١٢) الخفة والطيش.
(١٣) قام ووثب.
(١٤) التبختر في المشى.

فلما سكن هيج الماء من تحت أكنافها، وحمل شواهق الجبال الشمخ البُذَخ على أكنافها، فجر ينابيع العيون من عرانين[1] أنوفها، وفرقها في سهوب[2] بيدها وأخاديدها، وعدّل حركاتها بالرواسيات من جلاميدها، وذوات الشناخيب الشُّم[3] من صياخيدها[4]، فسكنت من الميدان لرسوب الجبال في قطع أديمها، وتغلغلها متسربة في جوبات خياشيمها، وركوبها أعناق سهول الأرضين وجرائمها، وفسح بين الجو وبينها، وأعد الهواء متنسما لساكنها، وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها. ثم لم يدخ جزر الأرض التي تقصر مياه العيون عن روابيها، ولا تجد جداول الأنهار ذريعة إلى بلوغها، حتى أنشأ لها ناشئة سحاب تحيي مواتها، وتستخرج نباتها. ألّف غمامها بعد افتراق لُمعه[5] وتباين قزعه[6]، حتى إذا تمخضت لجة المزن فيه، والتمع برقه في كففه[7]، ولم ينم وميضه في كنهور ربابه[8]، ومتراكم سحابه، أرسله سحا[9] متداركا، قد أسف هيدبه[10]، تمريه الجنوب درر أهاضيبه[11] ودفع شآبيبه[12]. فلما ألقت السحاب برك

---

(١) جمع عرنين، ويراد هنا أعالي الجبال.

(٢) جمع سهب أي الفلاة.

(٣) الشناخيب جمع شنخوب وهو رأس الجبل. والشم: الرفيعة.

(٤) جمع صيخود وهو الصخرة الشديدة.

(٥) جمع لمعة: قطعه من نبات يابس وهي هنا للاستعارة.

(٦) جمع قزعة: القطعة من الغيم.

(٧) جمع كفة وهي الجانبة والطرف لكل شيء.

(٨) كنهور: القطع العظيمة من السحاب. والرباب الأبيض المتلاصق منه.

(٩) متلاحقا متواصلا.

(١٠) السحاب المتدلي.

(١١) جمع أهضاب وهي المطرة.

(١٢) جمع شؤبوب: وهو ما ينزل من المطر بشدة.

بوانيها[1]، وبعاع[2] ما استقلت به من العبء المحمول عليها، أخرج به من هوامد الأرض النبات، ومن زعر الجبال الأعشاب، فهي تبهج بزينة رياضها، وتزدهي بما ألبسته من ريط[3] أزاهيرها، وحلية ما سُمطت به من ناضر أنوارها، وجعل ذلك بلاغًا للأنام، ورزقا للأنعام، وخرق الفجاج في آفاقها، وأقام المنار للسالكين على جواد طرقها. فلما مهد أرضه، وأنفذ أمره، اختار آدم، عليه السلام، خيرة من خلقه، وجعله أول جبلته، وأسكنه جنته، وأرغد فيها أكله، وأوعز إليه فيما نهاه عنه، وأعلمه أن في الإقدام عليه التعرض لمعصيته، والمخاطرة بمنزلته؛ فأقدم على ما نهاه عنه ـ موافاة لسابق علمه ـ فأهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله، وليقيم الحجة به على عباده، ولم يخلهم بعد أن قبضه، مما يؤكد عليهم حجة ربوبيته، ويصل بينهم وبين معرفته، بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه، ومتحملي ودائع رسالاته، قرنا فقرنا؛ حتى تمت بنبينا محمد ﷺ ـ حجته، وبلغ المقطع[4] عذره ونذره. وقدّر الأرزاق فكثّرها وقللها، وقسمها على الضيق والسعة فعدل فيها ليبتلي من أراد بميسورها ومعسورها، وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيها وفقيرها. ثم قرن بسعتها عقابيل فاقتها[5]، وبسلامتها طوارق آفاتها، وبفرج أفراحها غُصص أتراحها. وخلق الآجال فأطالها وقصرها، وقدمها وأخرها، ووصل بالموت أسبابها، وجعله خالجا لأشطانها[6]، وقاطعا

---

(١) عمود الخيمة والجمع بون.

(٢) ثقل السحاب من المطر.

(٣) جمع ريطة، وهي كل ثوب رقيق لين.

(٤) النهاية التي ليس ورءها غاية.

(٥) العقابيل: الشدائد، والفاقة هي الفقر.

(٦) جاذبا لأحبالها الطويلة، شبه به الأعمار الطويلة.

لزائر أقرانها، عالم السر من ضمائر المضمرين، ونجوى المتخافتين، وخواطر رجم الظنون، وعقد عزيمات اليقين، ومسارق إيماض الخفقون[1] وما ضمنته أكنان القلوب وغيابات الغيوب، وما أصغت لاستراقه مصائخ الأسماع، ومصائف الذر[2]، ومشاتي الهوام، ورجع الحنين من المولهات[3]، وهمس الأقدام، ومنفسح الثمرة من ولائج[4] غلف الأكمام، ومنقمع[5] الوحوش من غيران[6] الجبال وأوديتها، ومختبأ البعوض بين سوق الأشجار وألحيتها[7]، ومغرز الأوراق من الأفنان، ومحط الأمشاج من مسارب الأصلاب[8]، وناشئة الغيوم ومتلاحمها، ودرور قطر السحاب في متراكمها، وما تسقي الأعاصير بذيولها، وتعفو الأمطار بسيولها، وعوم بنات الأرض في كثبان الرمال، ومستقر ذوات الأجنحة بذرا شناخيب[9] الجبال، وتغريد ذوات المنطق في دياجير الأوكار، وما أوعبته الأصداف، وحضنت عليه أمواج البحار، وما غشته سدفة ليل[10]، أو ذر عليه شارق نهار، وما اعتقبت[11] عليه أطباق الدياجير[12]، وسبحات النور، وأثر كل خطوة، وحس كل

(١) المسارق: جمع مسرق، والإيماض هو اللمعان.

(٢) مصائف الذر: محل إقامة صغار النمل في الصيف.

(٣) الحزينات.

(٤) جمع ولجة بمعنى البطانة الداخلية.

(٥) موضع اختفاء الوحوش.

(٦) جمع غار

(٧) جمع خاء وهو قشر الشجرة.

(٨) جمع مسرب وهي ما يشرب الماء فيها عند نزوله.

(٩) رؤوس الجبال.

(١٠) سدفة: ظلمة.

(١١) تعاقبت وتوالت.

(١٢) الظلمات.

حركة، ورجع كل كلمة، وتحريك كل شفة ومستقر كل نسمة، ومثقال كل ذرة، وهماهم[1] كل نفس هامة، وما عليها من ثمر شجرة، أو ساقط ورقة؛ أو قرارة نطفة، أو نقاعة دم ومضغة، أو ناشئة خلق وسلالة؛ لم يلحقه في ذلك كلفة، ولا اعترضته في حفظ ما ابتدع من خلقه عارضة، ولا اعتورته في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين ملالة ولا فترة، بل نفذهم علمه، وأحصاهم عدده، ووسعهم عدله، وغمرهم فضله، مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله.

١١ـ ومن خطبة له

في التزهيد من الدنيا

نحمده على ما كان، ونستعينه من أمرنا على ما يكون، ونسأله المعافاة في الأديان، كما نسأله المعافاة في الأبدان.

عباد الله، أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم وإن لم تحبوا تركها، والمبلية لأجسامكم وإن كنتم تحبون تجديدها، فإنها مثلكم ومثلها كسفر سلكوا سبيلا فكأنهم قد قطعوه، وأمّوا علما فكأنهم قد بلغوه. وكم عسى المُجرى إلى الغاية أن يجرى إليها حتى يبلغها! وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه، وطالب حثيث من الموت يحدوه ومزعج في الدنيا حتى يفارقها رغما! فلا تنافسوا في عز الدنيا وفخرها، ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها، ولا تجزعوا من ضرائها وبؤسها، فإن عزها وفخرها إلى انقطاع، وإن زينتها ونعيمها إلى زوال، وضراءها وبؤسها إلى نفاد، وكل مدة فيها إلى انتهاء، وكل حي فيها إلى فناء. أو ليس

---

(١) همهم وهو ترديد الصوت في الصدر من الهم.

لكم في آثار الأولين مزدجر، وفي آبائكم الماضين تبصرة ومعتبر، إن كنتم تعقلون! أو لم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون، وإلى الخلف الباقين لا يبقون! أو لستم ترون أهل الدنيا يصبحون ويمسون على أحوال شتى: فميت يُبكى، وآخر يُعزّى، وصريع مبتلى، وعائد يعود، وآخر بنفسه يجود، وطالب للدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وعلى أثر الماضي ما يمضي الباقي!

ألا فاذكروا هازم اللذات، ومنغص الشهوات، وقاطع الأمنيات، عند المساورة[1] للأعمال القبيحة، واستعينوا الله على أداء واجب حقه، وما لا يحصى من أعداد نعمه وإحسانه.

أيها الناس، انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها، الصادفين عنها، فإنها والله عما قليل تزيل الثاوي[2] الساكن، وتفجع المترف الآمن، لا يرجع ما تولى منها فأدبر، ولا يُدرى ما هو آت منها فينتظر. سرورها مشوب بالحزن، وجلد الرجال فيها إلى الضعف والوهن، فلا يغرنكم كثرة ما يعجبكم فيها لقلة ما يصحبكم منها.

رحم الله امرء تفكر فاعتبر، واعتبر فأبصر، فكأن ما هو كائن من الدنيا عن قليل لم يكن، وكأن ما هو كائن من الآخرة عما قليل لم يزل، وكل معدود منقض، وكل متوقع آت، وكل آت قريب دان.

صفة العالم

ومنها: العالم من عرف قدره، وكفى بالمرء جهلا ألا يعرف قدره؛ وإن من أبغض الرجال إلى الله تعالى لعبدا وكله الله إلى نفسه، جائرا عن

---

(١) الوثبة من فعل وثب.

(٢) المقيم.

قصد السبيل، وسائرا بغير دليل؛ إن دعى إلى حرث الدنيا عمل، وإن دُعى إلى حرث الآخرة كسل! كأن ما عمل له واجب عليه؛ وكأن ما ونى[1] فيه ساقط عنه!

آخر الزمان

ومنها: وذلك زمان لا ينجو فيه إلا كل مؤمن نُومة[2]، «إن شهد لم يُعرف، وإن غاب لم يُفتقد، أولئك مصابيح الهدى، وأعلام السُّرى[3]، ليسوا بالمصابيح[4]، ولا المذاييع[5] البُذُر[6]، أولئك يفتح الله لهم أبواب رحمته، ويكشف عنهم ضراء نقمته.

١٢ ومن خطبة له

في بيان قدرة الله وانفراده بالعظمة وأمر البعث

قدرة الله

كل شيء خاشع له، وكل شيء قائم به: غنى كل فقير، وعز كل ذليل، وقوة كل ضعيف، ومفزع كل ملهوف. من تكلم سمع نطقه، ومن سكت علم سره، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه منقلبه. لم ترك العيون فتخبر عنك، بل كُنت قبل الواصفين من خلقك. لم تخلق الخلق لوحشة، ولا استعملتهم لمنفعة، ولا يسبقك من طلبت، ولا يفلتك[7] من أخذت، ولا ينقص سلطانك من عصاك، ولا يزيد في

---

(١) تراخى فيه.
(٢) كثير النوم.
(٣) السير في الليل.
(٤) جمع مصباح، وهو الذي يسيح بين الناس بالفساد والنميمة.
(٥) جمع مذياع، أي من أذاع فاحشة غيره ونوه عنها.
(٦) جمع بذور، وهو من كثر سفهه وزاد لغو منطقه.
(٧) لا يفلت منك.

ملكك من أطاعك، ولا يرد أمرك من سخط قضاءك، ولا يستغنى عنك من تولى عن أمرك. كل سر عندك علانية، وكل غيب عندك شهادة. أنت الأبد فلا أمد لك، وأنت المنتهى فلا محيص عنك، وأنت الموعد فلا منجى منك إلا إليك. بيدك ناصية كل دابة، وإليك مصير كل نسمة. سبحانك ما أعظم شأنك! سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك! وما أصغر كل عظيمة فى جنب قدرتك! وما أهول ما نرى من ملكوتك! وما أحقر ذلك فيما غاب عنا من سلطانك! وما أسبغ نعمك فى الدنيا، وما أصغرها فى نعم الآخرة!

الملائكة الكرام

ومنها: من ملائكة أسكنتهم سماواتك، ورفعتهم عن أرضك؛ هم أعلم خلقك بك، وأخوفهم لك، وأقربهم منك؛ لم يسكنوا الأصلاب، ولم يُضمّنوا الأرحام، ولم يُخلقوا «من ماء مهين»، ولم يتشعبهم «ريب المنون»؛ وإنهم على مكانهم منك، ومنزلتهم عندك، واستجماع أهوائهم فيك، وكثرة طاعتهم لك، وقلة غفلتهم عن أمرك، لو عاينوا كُنه ما خفى عليهم منك لحقّروا أعمالهم، ولزروا[1] على أنفسهم، ولعرفوا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك، ولم يطيعوك حق طاعتك.

عصيان الخلق

سبحانك خالقا ومعبودا! بحسن بلائك عند خلقك خلقت دارا، وجعلت فيها مأدبة: مشربا ومطعما، وأزواجا وخدما، وقصورا، وأنهارا، وزروعا، وثمارا؛ ثم أرسلت داعيا يدعو إليها، فلا الداعى أجابوا، ولا فيما رغبت رغبوا، ولا إلى ما شوقت إليه اشتاقوا. أقبلوا

(١) زرى عليه: كفعل رمى، أى عابه.

على جيفة قد افتضحوا بأكلها، واصطلحوا على حبها، ومن عشق شيئا أعشى بصره، وأمرض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع بأذن غير سميعة، قد خرقت الشهوات عقله، وأماتت الدنيا قلبه، وولهت عليها نفسه، فهو عبد لها، ولِمَن في يديه شيء منها، حيثما زالت زال إليها، وحيثما أقبلت أقبل عليها؛ لا يتزجر من الله بزاجر، ولا يتعظ منه بواعظ، وهو يرى المأخوذين على الغرة، حيث لا إقالة ولا رجعة، كيف نزل بهم ما كانوا يجهلون، وجاءهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون، وقدموا من الآخرة على ما كانوا يوعدون. فغير موصوف ما نزل بهم: اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت، ففترت لها أطرافهم، وتغيرت لها ألوانهم، ثم ازداد الموت فيهم ولوجا، فحيل بين أحدهم وبين منطقه، وإنه لبين أهله ينظر ببصره، ويسمع بأذنه على صحة من عقله، وبقاء من لُبه، يفكر فيم أفنى عمره، وفيم أذهب دهره! ويتذكر أموالا جمعها، وأغمض[1] في مطالبها، وأخذها من مصرَّحاتها ومشتبهاتها، قد لزمته تبعات جمعها، وأشرف على فراقها، تبقى لمن وراءه ينعمون فيها، ويتمتعون بها، فيكون المهنأ[2] لغيره، والعبء على ظهره. والمرء قد غلقت رهونه[3] بها، فهو يعض يده ندامة على ما أصحر[4] له عند الموت من أمره، ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره، ويتمنى أن الذي كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه! فلم يزل الموت يبالغ في جسده حتى خالط لسانه سمعه، فصار بين أهله لا ينطق بلسانه، ولا يسمع بسمعه: يردد طرفه بالنظر في وجوههم، يرى حركات

(١) أي لم يفرق بين حلال وحرام.

(٢) ما أتاك من خير بلا مشقة.

(٣) كناية عن تعذر الخلاص.

(٤) أصحر له: إذا برز في الصحراء. أي عنى ما ظهر له وانكشف من أمره.

لسنتهم، ولا يسمع رجع كلامهم. ثم ازداد الموت التياطا[1] به، فقُبض بصره كما قُبض سمعه، وخرجت الروح من جسده، فصار جيفة بين أهله، قد أوحشوا من جانبه، وتباعدوا من قربه. لا يُسعِد باكيا، ولا يجيب داعيا. ثم حملوه إلى مخطّ في الأرض، فأسلموه فيه إلى عمله، وانقطعوا عن زورته[2].

القيامة

حتى إذا بلغ الكتاب أجله، والأمر مقاديره، وأُلحق آخر الخلق بأوله، وجاء من أمر الله ما يريده من تجديد خلقه، أماد[3] السماء وفطرها، وأرجَ الأرض وأرجفها، وقلع جبالها ونسفها، ودك بعضها بعضا من هيبة جلالته ومخوف سطوته، وأخرج من فيها، فجددهم بعد إخلافهم[4]. وجمعهم بعد تفرقهم، ثم ميزهم لما يريده من مسألتهم عن خفايا الأعمال وخبايا الأفعال، وجعلهم فريقين: أنعم على هؤلاء وانتقم من هؤلاء. فأما أهل الطاعة فأثابهم بجواره، وخلدهم في داره، حيث لا يظعن النُّزّال، ولا تتغير بهم الحال، ولا تنوبهم الأفزاع، ولا تنالهم الأسقام، ولا تعرض لهم الأخطار، ولا تشخصهم[5] الأسفار. وأما أهل المعصية فأنزلهم شر دار، وغل الأيدي إلى الأعناق، وقرن النواصي بالأقدام، وألبسهم سرابيل[6] القطران، ومقطّعات[7] النيران، في عذاب

(١) اتصافا به.

(٢) زيارته.

(٣) حركها على غير انتظام.

(٤) الإخلاق إلى البلى، وهو يشملهم كما يشمل الثياب البالية.

(٥) لا تزعجهم.

(٦) السرابيل جمع سربال وهو القميص.

(٧) كل ثوب يقطع كالقميص مثلا.

قد اشتد حره، وباب قد أُطبق على أهله، في نار لها كَلَب[1] ولَجَب[2]، ولهب ساطع، وقصيف[3] هائل، لا يظعن مقيمها ولا يُفادى أسيرها، ولا تُفصم كبولها[4]، لا مدة للدار فتفنى، ولا أجل للقوم فيُقضى.

زهد النبي

ومنها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله: قد حقّر الدنيا وصغّرها، وأهون بها وهوّنها، وعلم أن الله زواها[5] عنه اختيارا، وبسطها لغيره احتقارا، فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها عن نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشا، أو يرجو فيها مقاما. بلّغ عن ربه معذرا، ونصح لأمته منذرا، ودعا إلى الجنة مبشرا، وخوّف من النار محذرا.

أهل البيت

نحن شجرة النبوة، ومحطّ الرسالة، ومختلف الملائكة ومعادن العلم، وينابيع الحكم، ناصرنا ومحبنا ينتظر الرحمة، وعدونا ومبغضنا ينتظر السطوة.

١٢ ـ ومن خطبة له في أركان الدين

الإسلام

إن أفضل ما توسل به المتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى، الإيمان به وبرسوله، والجهاد في سبيله، فإنه ذروة الإسلام؛ وكلمة الإخلاص

---

(١) هيجان.

(٢) الصوت المرتفع.

(٣) أشد الصوت.

(٤) جمع كبل أي القيد، وتفصم: تنقطع.

(٥) قبضها.

فإنها الفطرة؛ وإقام الصلاة فإنها الملة؛ وإيتاء الزكاة فإنها فريضة واجبة؛ وصوم شهر رمضان فإنه جُنة من العقاب؛ وحج البيت واعتماره فإنهما ينفيان الفقر ويرحضان[1] الذنب؛ وصلة الرحم فإنها مثراة فى المال، ومنساة[2] فى الأجل؛ وصدقة السر فإنها تُكفّر الخطيئة؛ وصدقة العلانية فإنها تدفع ميتة السوء؛ وصنائع المعروف فإنها تقى مصارع الهوان.

أفيضوا فى ذكر الله فإنه أحسن الذكر. وارغبوا فيما وعد المتقين فإن وعده أصدق الوعد. واقتدوا بهدى نبيكم فإنه أفضل الهدى. واستنّوا بسنّته فإنها أهدى السنن.

فضل القرآن

وتعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص، وإن العالِم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذى لا يستفيق من جهله؛ بل الحجة عليه أعظم، والحسرة له ألزم، وهو عند الله ألوم[3].

١٤- ومن خطبة له فى ذم الدنيا

أما بعد، فإنى أحذركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة، حُفّت بالشهوات، وتحببت بالعاجلة، وراقت بالقليل، وتحلت بالآمال، وتزينت بالغرور. لا تدوم حبرتها، ولا تُؤمَن فجعتها. غرّارة ضرّارة، حائلة زائلة، نافدة بائدة، أكّالة غوّالة. لا تعدو - إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها

---

(١) رحضه إى غسله.

(٢) مطال فيه ومزيد.

(٣) أشد لومًا لفعله.

والرضاء بها ـ أن تكون كما قال الله تعالى سبحانه: «كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدرا». لم يكن امرؤ منها في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق في سرائها بطنا، إلا منحته من ضرائها ظهرا ولم تطله[1] فيها ديمة[2] رخاء إلا هتنت[3] عليه مُزنة بلاء! وحرى إذا أصبحت له منتصرة أن تمسي له متنكرة، وإن جانب منها اعذوذب واحلولى، أمرّ منها جانب فأوبى[4]! لا ينال امرؤ من غضارتها رغبا، إلا أرهقته من نوائبها تعبا! ولا يمسي منها في جناح أمن، إلا أصبح على قوادم[5] خوف! غرارة، غرور ما فيها، فانية، فان من عليها، لا خير في شيء من أزوادها إلا التقوى. من أقل منها استكثر مما يؤمنه! ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه، وزال عما قليل عنه. كم من واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة إليها قد صرعته، وذي أبهة قد جعلته حقيرا، وذي نخوة قد ردته ذليلا! سلطانها دول، وعيشها رنق[6]، وعذبها أجاج، وحلوها صبر، وغذاؤها سمام[7]، وأسبابها رمام[8]! حيُها بعرض موت، وصحيحها بعرض سقم! مُلكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وموفورها منكوب، وجارها محروب[9]! ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول

(١) أمطرته مطرا خفيفا.

(٢) مطر يدوم دون برق أو رعد.

(٣) انصبت.

(٤) صار كثير الثواء.

(٥) جمع قادمة، وهي في مقدم جناح الطائر.

(٦) كدر.

(٧) جمع سم.

(٨) جمع رمة وهي القطعة البالية من الحبل.

(٩) إذا سلب ماله.

أعمارا، وأبقى آثارا، وأبعد آمالا، وأعد عديدا، وأكثف جنودا! تعبّدوا للدنيا أي تعبد، وآثروها أي إيثار، ثم ظعنوا عنها بغير زاد مُبلّغ ولا ظهر قاطع. فهل بلغكم أن الدنيا سخت لهم نفسا بفدية، أو أعانتهم بمعونة، أو أحسنت لهم صحبة! بل أرهقتهم بالقوادح[1]، وأزهقتهم بالقوارع[2]، وضعضعتهم بالنوائب، وعفّرتهم للمناخر، ووطئتهم بالمناسم، وأعانت عليهم «ريب المنون». فقد رأيتم تنكّرها لِمَن دان لها، وآثرها وأخلد إليها، حين ظعنوا عنها لفراق الأبد. وهل زوّدتهم إلا السغب[3]، أو أحلّتهم إلا الضنك، أو نوّرت لهم إلا الظلمة، أو أعقبتهم إلا الندامة! أفهذه تؤثرون، أم إليها تطمئنون، أم عليها تحرصون؟ فبئست الدار لمن لم يتهمها، ولم يكن فيها على وجل منها! فاعلموا - وأنتم تعلمون - بأنكم تاركوها وظاعنون عنها، واتعظوا فيها بالذين قالوا: «من أشد منا قوة»: حُملوا إلى قبورهم فلا يُدعون ركبانا، وأُنزلوا الأجداث فلا يُدعون ضيفانا، وجُعل لهم من الصفيح[4] أجنان[5]، ومن التراب أكفان، ومن الرفات جيران، فهم جيرة لا يجيبون داعيا، ولا يمنعون ضيما، ولا يُبالون مندبة. إن جيدوا[6] لم يفرحوا، وإن قُحطوا لم يقنطوا. جميع وهم آحاد، وجيرة وهم أبعاد. متدانون لا يتزاورون، وقريبون لا يتقاربون. حُلماء قد ذهبت أضغانهم، وجهلاء قد ماتت أحقادهم[7].

---

(١) جمع قادح وهو آكال يقع في الشجر والأسنان.

(٢) الحدثان الدهر.

(٣) الجوع.

(٤) لزاد وجه الأرض.

(٥) القبور.

(٦) مطروا.

(٧) لا تخاف منهم أن يفجموك بضرر.

لا يُخشى فجعهم، ولا يرجى دفعهم، استبدلوا بظهر الأرض بطنا، وبالسعة ضيقا، وبالأهل غربة، وبالنور ظلمة، فجاؤوها كما فارقوها، حفاة عراة، قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة والدار الباقية، كما قال سبحانه وتعالى: «كما بدأنا أول خلق نعيده، وعدا علينا، إنا كنا فاعلين».

وأحذركم الدنيا فإنها منزل قُلعة، وليست بدار نُجعة. قد تزينت بغرورها، وغرت بزينتها. دارها هانت على ربها، فخلط حلالها بحرامها، وخيرها بشرها، وحياتها بموتها، وحلوها بمرها. لم يصفها الله تعالى لأوليائه، ولم يضنّ بها على أعدائه. خيرها زهيد وشرها عتيد. وجمعها ينفد، وملكها يُسلب، وعامرها يخرب. فما خير دار تنقض نقض البناء، وعمر يفنى فيها فناء الزاد، ومدة تنقطع انقطاع السير! اجعلوا ما افترض الله عليكم من طلبكم، واسألوه من أداء حقه ما سألكم.

وأسمعوا دعوة الموت آذانكم قبل أن يُدعى بكم. إن الزاهدين في الدنيا تبكي قلوبهم وإن ضحكوا، ويشتد حزنهم وإن فرحوا، ويكثر مقتهم أنفسهم وإن اغتبطوا بما رزقوا. قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال، وحضرتكم كواذب الآمال، فصارت الدنيا أملك بكم من الآخرة، والعاجلة أذهب بكم من الآجلة، وإنما أنتم إخوان على دين الله، ما فرّق بينكم إلا خُبث السرائر، وسوء الضمائر. فلا توازرون ولا تناصحون، ولا تباذلون ولا توادون. ما بالكم تفرحون باليسير من الدنيا تدركونه، ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه! ويقلقكم اليسير

من الدنيا يفوتكم، حتى يتبين ذلك في وجوهكم، وقلة صبركم عما زوي منها عنكم! كأنها دار مقامكم، وكأن متاعها باق عليكم. وما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف من عيبه، إلا مخافة أن يستقبلة بمثله. قد تصافيتم على رفض الآجل وحب العاجل، وصار دين أحدكم لُعقة[1] على لسانه، صنيع من قد فرغ من عمله، وأحرز رضى سيده.

١٥ ـ ومن خطبة له وفيها مواعظ للناس

الحمد لله الواصل الحمد بالنعم والنعم بالشكر. نحمده على آلائه، كما نحمده على بلائه. ونستعينه على هذه النفوس البطاء[2]. عما أُمرت به، السراع[3] إلى ما نُهيت عنه. ونستغفره مما أحاط به علمه، وأحصاه كتابه: علم غير قاصر، وكتاب غير مغادر. ونؤمن به إيمان من عاين الغيوب، ووقف على الموعود. إيمانا نفى إخلاصه الشرك، ويقينه الشك. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم عبده ورسوله، شهادتين تصعدان القول، وترفعان العمل. لا يخف ميزان توضعان فيه، ولا يثقل ميزان ترفعان عنه.

أوصيكم، عباد الله، بتقوى الله التي هي الزاد وبها المعاذ: زاد مُبلغ، ومعاذ مُنجح. دعا إليها أسمع داع، ووعظ خير واع. فأسمع داعيها، وفاز واعيها.

---

(١) عبر باللعقة عن الإقرار باللسان مع ركون القلب إلى مخالفته.

(٢) جمع بطيئة.

(٣) جمع سريعة.

عباد الله، إن تقوى الله حمت[1] أولياء الله محارمه، وألزمت قلوبهم مخافته، حتى أسهرت لياليهم، وأظمأت هواجرهم[2]؛ فأخذوا الراحة بالنصب، والري بالظمأ؛ واستقربوا الأجل فبادروا العمل، وكذبوا الأمل فلاحظوا الأجل. ثم إن الدنيا دار فناء وعناء، وغير وعبر؛ فمن الفناء أن الدهر موتر قوسه[3]، لا تُخطئ سهامه، ولا تُؤسي[4] جراحه. يرمي الحي بالموت، والصحيح بالسقم، والناجي بالعطب. آكل لا يشبع، وشارب لا ينقع. ومن العناء أن المرء يجمع ما لا يأكل ويبني ما لا يسكن، ثم يخرج إلى الله تعالى لا مالا حمل، ولا بناء نقل! ومن غيرها أنك ترى المرحوم مغبوطا، والمغبوط مرحوما؛ ليس ذلك إلا نعيما زل، وبؤسا نزل. ومن عبرها أن المرء يشرف على أمله فيقتطعه حضور أجله. فلا أمل يدرك، ولا مؤمّل يترك. فسبحان الله ما أعز سرورها! وأظمأ ريها! وأضحى فيئها[5]! لا جاء يُرد، ولا ماض يرتد. فسبحان الله، ما أقرب الحي من الميت للحاقه به، وأبعد الميت من الحي لانقطاعه عنه!

إنه ليس شيء بشرّ من الشر إلا عقابه، وليس شيء بخير من الخير إلا ثوابه. وكل شيء من الدنيا سماعه أعظم من عيانه، وكل شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه. فليكفكم من العيان السماع، ومن الغيب الخبر. واعلموا أن ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة خير مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا: فكم من منقوص رابح ومزيد خاسر!

(١) حمى الشيء: منعه.

(٢) جمع هاجرة: شدة حر النهار.

(٣) شبه الدهر بمن أوتر قوسه ليرمي به أبناءه.

(٤) أي تداوى.

(٥) الظل بعد الزوال.

إن الذى أُمرتم به أوسع من الذى نهيتم عنه. وما أُحل لكم أكثر مما حرم عليكم. فذروا ما قل لما كثر، وما ضاق لما اتسع. قد تكفل لكم بالرزق وأُمرتم بالعمل؛ فلا يكونن المضمون لكم طلبه أولى بكم من المفروض عليكم عمله، مع أنه والله لقد اعترض الشك، ودخل اليقين، حتى كأن الذى ضُمن لكم قد فُرض عليكم، وكأن الذى قد فُرض عليكم قد وُضع عنكم. فبادروا العمل، وخافوا بغتة الأجل، فإنه لا يُرجى من رجعة العمر ما يُرجى من رجعة الرزق. ما فات اليوم من الرزق رُجى غدا زيادته، وما فات أمس من العمر لم يُرج اليوم رجعته. الرجاء مع الجائى، واليأس مع الماضى. فـ «اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون».

١٦ـ ومن خطبة له

يعظ فيها ويزهد فى الدنيا

حمد الله

نحمده على ما أخذ وأعطى، وعلى ما أبلى وابتلى. الباطن لكل خفية، والحاضر لكل سريرة، العالم بما تكن الصدور، وما تخون العيون. ونشهد أن لا إله غيره، وأن محمدا نجيبه وبعيثه، وشهادة يوافق فيها السر الإعلان، والقلب اللسان.

عظة الناس

ومنها: فإنه والله الجد لا اللعب، والحق لا الكذب. وما هو إلا الموت أسمع داعية، وأعجل حادية. فلا يغرنك سواد الناس من نفسك، وقد رأيت من كان قبلك ممن جمع المال وحذر الإقلال، وأمن العواقب

ـ طول أمل واستبعاد أجل ـ كيف نزل به الموت فأزعجه عن وطنه، وأخذه من مأمنه، محمولا على أعواد المنايا يتعاطى به الرجال الرجال، حملا على المناكب وإمساكا بالأنامل. أما رأيتم الذين يأملون بعيدا، ويبنون مشيدا، ويجمعون كثيرا! كيف أصبحت بيوتهم قبورا، وما جمعوا بورا! وصارت أموالهم للوارثين، وأزواجهم لقوم آخرين؛ لا في حسنة يزيدون، ولا من سيئة يستعتبون! فمن أشعر التقوى قلبه برّز مهله[1]، وفاز عمله. فاهتبلوا[2] هبلها، واعملوا للجنة عملها: فإن الدنيا لم تخلق لكم دار مقام، بل خلقت لكم مجازا لتزودوا منها الأعمال إلى دار القرار. فكونوا منها على أوفاز[3]. وقرّبوا الظهور[4] للزيال[5].

عظمة الله تعالى

وانقادت له الدنيا والآخرة بأزمّتها، وقذفت إليه السماوات والأرضون مقاليدها، وسجدت له بالغدو والآصال الأشجار الناضرة، وقدحت له من قضبانها النيران المضيئة، وآتت أكلها بكلماته الثمار اليانعة.

القرآن

منها: وكتاب الله بين أظهركم ناطق لا يعيا لسانه، وبيت لا تهدم أركانه، وعز لا تهزم أعوانه.

---

(١) أي برز تقدمه في الخير.

(٢) أي خلبه، والمعنى: اغتنموا خير التقوى.

(٣) الوفز: العجلة.

(٤) أي ظهور مطايا.

(٥) الفراق.

رسول الله

منها: أرسله على حين فترة من الرسل، وتنازع من الألسن، فقفّى به الرسل، وختم به الوحي، فجاهد في الله المدبرين عنه، والعادلين به.

الدنيا

منها: وإنما الدنيا منتهى بصر الأعمى، لا يبصر مما وراءها شيئا، والبصير ينفذها بصره، ويعلم أن الدار وراءها. فالبصير منها شاخص، والأعمى إليها شاخص. والبصير منها متزود، والأعمى لها متزود.

عظة الناس

منها: واعلموا أنه ليس من شيء إلا ويكاد صاحبه يشبع منه ويمله إلا الحياة فإنه لا يجد في الموت راحة. وإنما ذلك بمنزلة الحكمة التي هي حياة للقلب الميت، وبصر للعين العمياء، وسمع للأذن الصماء، وري للظمآن، وفيها الغنى كله والسلامة. كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله، ولا يخالف بصاحبه عن الله. قد اصطلحتم على الغل فيما بينكم، ونبت المرعى على دمنكم[1]. وتصافيتم على حب الآمال، وتعاديتم في كسب الأموال. لقد استهام[2] بكم الخبيث، وتاه بكم الغرور. والله المستعان على نفسي وأنفسكم.

١٧ـ ومن خطبة له

فناء الدنيا

أيها الناس، إنما أنتم في هذه الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا، مع كل

(١) جمع دمنة وهي الحقد القديم تشبيها لها بالسرقين أي تراث الماشية.

(٢) هام على وجهه، إذا ما خرج لا يدري أين يذهب.

جرعة شرق، وفي كل أكلة غصص! لا تنالون منها نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يعمر معمر منكم يوما من عمره إلى بهدم آخر من أجله، ولا تجدد له زيادة في أكله إلا بنقاد ما قبلها من رزقه؛ ولا يحيا له أثر، إلا مات له أثر؛ ولا يتجدد له جديد إلا بعد أن يخلق له جديد؛ ولا تقوم له نابتة إلا وتسقط منه محصودة. وقد مضت أصول نحن فروعها، فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله!

ذم البدعة

منها: وما أُحدثت بدعة إلا تُرك بها سُنة. فاتقوا البدع، والزموا المهيع[1]. إن عوازم الأمور أفضلها، وإن محدثاتها شرارها.

١٨ ـ ومن خطبة له

الغاية من البعثة

فبعث الله محمدا، صلى الله عليه وآله، باخق ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته، ومن طاعة الشيطان إلى طاعته، بقرآن قد بينه وأحكمه، ليعلم العباد ربهم إذ جهلوه، وليقروا به بعد إذ جحدوه، وليثبتوه بعد إذ أنكروه. فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته، وخوّفهم من سطوته، وكيف محق من محق بالمثلات، واحتصد من احتصد بالنقمات!

الزمان المقبل

وإنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله؛ وليس

---

(١) أي الطريق الواضح.

عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا أنفق منه إذا حرف عن مواضعه؛ ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر! فقد نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته: فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان، وصاحبان مصطحبان في طريق واحد لا يؤويهما مؤو. فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم، ومعهم وليسا معهم! لأن الضلالة لا توافق الهدى، وإن اجتمعا. فاجتمع القوم على الفرقة، وافترقوا على الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلا اسمه، ولا يعرفون إلا خطه وزبره[1]. ومن قبل ما مثّلوا بالصالحين كل مُثلة، وسمّوا صدقهم على الله فرية، وجعلوا في الحسنة عقوبة السيئة.

وإنما هلك من كان قبلكم بطول آمالهم وتغيب آجالهم، حتى نزل بهم الموعود الذي تُرد عنه المعذرة، وتُرفع عنه التوبة، وتحل معه القارعة والنقمة.

عظة الناس

أيها الناس، إنه من استصبح الله وفق، ومن اتخذ قوله دليلا هدى للتي هي أقوم؛ فإن جار الله آمن، وعدوه خائف؛ وإنه لا ينبغي لمن عرف عظمة الله أن يتعظم، فإن رفعة الذين يعلمون ما عظمته أن يتواضعوا له، وسلامة الذين يعلمون ما قدرته أن يستسلموا له. فلا تنفروا من الحق نفار الصحيح من الأجرب، والبارئ من ذي السقم. واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به حتى

---

(١) الكتابة.

تعرفوا الذي نبذه، فالتمسوا ذلك من عند أهله، فإنهم عيش العلم وموت الجهل. هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم، وصمتهم عن منطقهم، وظاهرهم عن باطنهم؛ لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه؛ فهو بينهم شاهد صادق، وصامت ناطق.

١٩ـ ومن خطبة له

في صفات الله جل جلاله، وصفات أئمة الدين

الحمد لله الدال على وجوده بخلقه، وبمحدث خلقه على أزليته؛ وباشتباههم على أن لا شبه له. لا تستلمه[١] المشاعر، ولا تحجبه السواتر، لافتراق الصانع والمصنوع، والحاد والمحدود، والرب والمربوب؛ الأحد بلا تأويل عدد، والخالق لا بمعنى حركة ونصب، والسميع لا بأداة[٢]، والبصير لا بتفريق آله، والشاهد لا بمماسة، والبائن[٣] لا بتراخي مسافة، والظاهر لا برؤية، والباطن لا بلطافة. بان من الأشياء بالقهر لها، والقدرة عليها، وبانت الأشياء منه بالخضوع له، والرجوع إليه. من وصفه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن عدّه فقد أبطل أزله، ومن قال: «كيف» فقد استوصفه، ومن قال: «أين» فقد حيزه. عالم إذ لا معلوم، ورب إذ لا مربوب، وقادر إذ لا مقدور.

أئمة الدين

منها: قد طلع طالع، ولمع لامع، ولاح لائح، واعتدل مائل؛ واستبدل الله بقوم قوماً، وبيوم يوماً؛ وانتظرنا الغير انتظار المجدب

---

(١) أي لا تصل إليه الحواس.

(٢) الآلة.

(٣) المنفصل عن خلقه.

المطر. وإنما الأئمة قُوّام الله على خلقه، وعرفاؤه على عباده؛ ولا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه. إن الله تعالى خصكم بالإسلام؛ واستخلصكم له، وذلك لأنه اسم سلامة، وجماع كرامة. اصطفى الله تعالى منهجه، وبيّن حججه، من ظاهر علم، وباطن حِكَم. لا تفنى غرائبه، ولا تنقضى عجائبه. فيه مرابيع النعم، ومصابيح الظلم، لا تفتح الخيرات إلا بمفاتيحه، ولا تكشف الظلمات إلا بمصابيحه. قد أحمى حماه، وأرعى مرعاه. فيه شفاء المستشفى، وكفاية المكتفى.

٢٠ـ ومن خطبة له

وفيها يعظ ويبين فضل القرآن وينهى عن البدعة

عظة الناس

انتفعوا ببين الله، واتعظوا بمواعظ الله، واقبلوا نصيحة الله، فإن الله قد أعذر إليكم بالجلية، واتخذ عليكم الحجة، وبيّن لكم محابه من الأعمال، ومكارهه منها؛ لتتبعوا هذه، وتجتنبوا هذه، فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ كان يقول: «إن الجنة حُفّت بالمكاره، وإن النار حُفّت بالشهوات».

واعلموا أنه ما من طاعة الله شيء إلا يأتى فى كره، وما من معصية الله شيء إلا يأتى فى شهوة. فرحم الله امرأ نزع عن شهوته، وقمع هوى نفسه، فإن هذه النفس أبعد شيء منزعا، وإنها لا تزال تنزع إلى معصية فى هوى.

واعلموا ـ عباد الله ـ أن المؤمن لا يصبح ولا يمسى إلا ونفسه ظنون

عنهد، فلايزال زاريا[1] عليها ومستزيدا لها. فكونوا كالسابقين قبلكم، والماضين أمامكم. قوّضوا[2] من الدنيا تقويض الراحل، وطووها طي المنازل.

فضل القرآن

واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب. وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى؛ أو نقصان من عمى. واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى؛ فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم[3]، فإن فيه شفاء من أكبر الداء: وهو الكفر والنفاق، والغي والضلال، فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبه، ولا تسألوا به خلقه، إنه ما توجه العباد إلى الله تعالى بمثله. واعلموا أنه شافع مشفّع، وقائل مصدق، وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة شُفّع فيه؛ ومن مَحَل[4] به القرآن يوم القيامة صُدّق عليه، فإنه ينادي مناد يوم القيامة: «ألا إن كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله، غير حرثة القرآن». فكونوا من حرثته وأتباعه، واستدلوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم، واستغشوا[5] فيه أهواءكم.

---

(١) أي غانما عليها.

(٢) من التقويض: والمراد هنا أنهم ذهبوا بمساكنهم وطووا مدة الحياة كما يطوي المسافر منازل سفره أي مراحله ومسافاته.

(٣) اللأواء: الشدة.

(٤) مَحَل به: هنا كناية عن مبالغة أحكام السلطان لما أتاه العبد من أعماله.

(٥) أي ظنوا فيها الغش.

الحث على العمل

العمل العمل، ثم النهاية النهاية، والاستقامة الاستقامة ثم الصبر الصبر، والورع الورع! «إن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم»، وإن لكم عَلَما فاهتدوا بعَلَمكم، وإن للإسلام غاية فانتهوا إلى غايته. واخرجوا إلى الله بما افترض عليكم من حقه، وبيّن لكم من وظائفه. أنا شاهد لكم، وحجيج يوم القيامة عنكم.

نصائح للناس

ألا وإن القدر السابق قد وقع، والقضاء الماضي قد تورّد؛ وإني متكلم بعدة الله وحجته، قال الله تعالى: «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا، ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون»، وقد قلتم: «ربنا الله»، فاستقيموا على كتابه، وعلى منهاج أمره، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته، ثم لا تمرقوا منها، ولا تبتدعوا فيها، ولا تخالفوا عنها. فإن أهل المروق منقطع بهم عند الله يوم القيامة. ثم إياكم وتهزيع[1] الأخلاق وتصريفها، واجعلوا اللسان واحدا، وليخزن الرجل لسانه، فإن هذا اللسان جموح بصاحبه. والله ما أرى عبدا يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه. وإن لسان المؤمن من وراء قلبه، وإن قلب المنافق من وراء لسانه: لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره في نفسه، فإن كان خيرا أبداه، وإن كان شرا واراه. وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه لا يدري ماذا له، وماذا عليه. ولقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه. ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه». فمن استطاع منكم

---

(١) تهزيع الشيء: تكسيره، والصادق إذا كذب انكسر صدقه.

أن يلقى الله تعالى وهو نقي الراحة من دماء المسلمين وأموالهم، سليم اللسان من أعراضهم، فليفعل.

تحريم البدع

واعلموا عباد الله أن المؤمن يستحل العام ما استحل عاما أول، ويحرم العام ما حرم عاما أول؛ وأن ما أحدث الناس لا يحل لكم شيئا مما حرم عليكم، ولكن احلال ما أحل الله، والحرام ما حرم الله. فقد جربتهم الأمور وضرستموها[1]، ووعظتم بمن كان قبلكم، وضربت الأمثال لكم، ودعيتم إلى الأمر الواضح؛ فلا يصم عن ذلك إلا أصم، ولا يعمى عن ذلك إلا أعمى. ومن لم ينفعه الله بالبلاء والتجارب لم ينتفع بشيء من العظة، وأتاه التقصير من أمامه، حتى يعرف ما أنكر، وينكر ما عرف. وإنما الناس رجلان: متبع شرعة، ومبتدع بدعة، ليس معه من الله سبحانه برهان سُنة، ولا ضياء حجة.

القرآن

وإن الله سبحانه لم يعظ أحدا بمثل هذا القرآن، فإنه «حبل الله المتين»، وسببه الأمين، وفيه ربيع القلب، وينابيع العلم، وما للقلب جلاء غيره، مع أنه قد ذهب المتذكرون، وبقي الناسون أو المتناسون. فإذا رأيتم خيرا فأعينوا عليه، وإذا رأيتم شرا فاذهبوا عنه، فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ كان يقول: «يابن آدم، اعمل الخير ودع الشر، فإذا أنت جواد قاصد».

أنواع الظلم

ألا وإن الظلم ثلاثة: فظلم لا يُغفر، وظلم لا يُترك، وظلم مغفور

(١) ضرسته الحرب: جربته، والمراد هنا جربتموها.

لا يطلب. فأما الظلم الذى لا يُغفر فالشرك بالله، قال الله تعالى: «إن الله لا يغفر أن يشرك به». وأما الظلم الذي يُغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات. وأما الظلم الذى لا يُترك فظلم العباد بعضهم بعضا. القصاص هناك شديد، ليس هو جرحا بالمُدى ولا ضربا بالسياط، ولكنه ما يستصغر ذلك معه. فإياكم والتّلوّن فى دين الله، فإن جماعة فيما تكرهون من الحق، خير من فُرقة فيما تحبون من الباطل. وإن الله سبحانه لم يعط أحدا بفُرقة خيرا ممن مضى، ولا ممن بقى.

لزوم الطاعة

يا أيها الناس «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»، وطوبى لمن لزم بيته، وأكل قوته، واشتغل بطاعة ربه، «وبكى على خطيئته» فكان من نفسه فى شغل، والناس منه فى راحة!

٢١ـ ومن خطبة له

يصف جوهر الرسول، ويصف العلماء، ويعظ بالتقوى

وأشهد أنه عدل عدل، وحكم فصل، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وسيد عباده، كلما نسخ الله الخلق فرقتين جعله فى خيرهما، لم يسهم فيه عاهر، ولا ضرب فيه فاجر.

ألا وإن الله سبحانه قد جعل للخير أهلا، وللحق دعائم، وللطاعة عصما. وإن لكم عند كل طاعة عونا من الله سبحانه يقول على الألسنة، ويثبّت الأفئدة. فيه كفاء[1] لمكتف، وشفاء لمشتف.

---

(١) الكفاء: الكافى أو الكفاية.

صفة العلماء

واعلموا أن عباد الله المستحفظين[1] علمه، يصونون مصونه، ويفجرون عيونه. يتواصلون بالولاية، ويتلاقون بالمحبة، ويتساقون بكأس روية، ويصدرون برية، لا تشوبهم الريبة، ولا تسرع فيهم الغيبة. على ذلك عقد خلقهم وأخلاقهم، فعنيه يتحابون، وبه يتواصلون، فكانوا كتفاضل البذر يُنتقى، فيؤخذ منه ويلقى، قد ميزه التخليص، وهذبه التمحيص.

العظة بالتقوى

فليقبل امرؤ كرامة بقبولها، وليحذر قارعة قبل حلولها، وليظر امرؤ فى قصير أيامه، وقليل مقامه، فى منزل حتى يستبدل به منزلا، فليصنع لمتحوله[2]، ومعارف منتقله[3]. فطوبى لذى قلب سليم، أطاع من يهديه، وتجنب من يرديه، وأصاب سبيل السلامة ببصر من بصّره، وطاعة هاد أمره، وبادر الهدى قبل أن تغلق أبوابه، وتقطع أسبابه، واستفتح التوبة، وأماط الحوبة[4]، فقد أقيم على الطريق، وهدى نهج السبيل.

---

(١) الذين أودعوا العلم ليحفظوه.

(٢) ما يتحول إليه.

(٣) معارف المنتقل: المواضع التى يعرف الانتقال إليها.

(٤) الإثم.